ثالثا: رواد علم الاجتماع (تابع)

إيميل دوركايم (1858- 1917)

01- نشأته وأهم مؤلفاته:

ولد "إيميل دوركايم" في (إبينال) باللورين وهي مقاطعة فرنسية، لأب من الحاخامات اليهودية، الذي أراد لابنه أن يسير على نهج الأسرة بأن يصبح رجل دين، وقد أراد الابن لنفسه ذلك أيضا فدرس العبرية وقرأ كتاب العهد القديم والتلمود، و في الوقت نفسه درس العلمانية وسار في التعليم الحكومي، تم قبوله بالمدرسة العليا للأساتذة سنة 1879، وتأثر بالعديد من المفكرين الفرنسيين لعل أهمهم "فوستل دي كولانج"، وبعد تخرجه سنة 1882 اشتغل بالتدريس في المدارس الثانوية، ثم أتيح له الذهاب إلى ألمانيا في إجازة علمية، فتأثر بفلاسفة عصر التنوير واعتبر "سان سيمون" أستاذه في علم الاجتماع.

وبالنظر إلى البيئة الاجتماعية التي نشأ فيها "إيميل دوركايم" نجده عاش بداية في مجتمع يهودي محافظ ومتضامن تسوده علاقات مباشرة، ثم انتقل إلى "باريس" حيث المجتمع المتباين، لذا نجده لم يخرج عن هذين النمطين من المجتمعات في تصوره للمجتمع: مجتمع الطفولة البسيط ومجتمع العاصمة المعقد، كما بدأ مبكرا في الاطلاع على ما قدمه "سان سيمون" و" كارل ماركس" ليصوغ لاحقا دراسته الشهيرة حول **تقسيم العمل**، فجاءت مقولاته وأفكاره مناهضة للاشتراكية حينا ومتأثرة بها حينا آخر، إلا أن "إيميل دوركايم" كانت تصوراته كانت تؤكد **التضامن الاجتماعي** بدلا من **الصراع الاجتماعي**.

ويعتبر "إيميل دوكايم" المفكر الذي دعا إلى الابتعاد عن الدراسات **العامة والشاملة** في علم الاجتماع، والتوجه نحو **التخصص** ويكون موضوعه العمليات والنظم الاجتماعية، فقد حدد في (**مجلة الحولية الاجتماعية**) والتي كانت أول مجلة سوسيولوجية متخصصة أقسام علم الاجتماع الرئيسية كالتالي:

علم الاجتماع العام، علم اجتماع الديني، علم اجتماع القانوني والأخلاقي، علم اجتماع الجنائي، علم اجتماع الاقتصادي، الديمغرافيا وعلم اجتماع الجمالي.(**إنكلز، 39**)

من **أهم مؤلفاته**: تقسيم العمل الاجتماعي (1893)، قواعد المنهج في علم الاجتماع (1895)، الانتحار(1897)، الأشكال الأولية للحياة الدينية (1912).

02- تصور المجتمع عند دوركايم:

لخص "دوركايم" تصوراته لعلم الاجتماع وللمجتمع في أن العامل الفعال الوحيد الذي يؤثر في المجتمع هو البيئة الاجتماعية أو البيئة الإنسانية، وحينئذ على عالم الاجتماع أن يبذل مجهوده الرئيسي في الكشف عن خواص هذه البيئة التي تستطيع التأثير في تطور الظاهرة الاجتماعية، حيث اهتدى الدارسون للفكر الدوركايمي إلى نوعين من الخواص التي يتحقق في ضوئها الشرط السابق هي: **عدد الوحدات الاجتماعية** أو **حجم المجتمع** و **الكتلة الاجتماعية** أو **الكثافة الديناميكية** ، حيث يشير هذا الأخير إلى درجة التركز المادي والصلات الروحية الوثيقة بين أفراد المجتمع، أما الكثافة فتحدد بعدد الأفراد الذين يعيشون حياة مشتركة إلى جانب ما يتبادلونه من خدمات وما يوجد بينهم من تنافس، والحياة الاجتماعية تتضح وتتبلور حسب درجة الالتئام بين الأجزاء الاجتماعية وهي خير وسيلة تعبر عن الكثافة الديناميكية.

وعليه فإن كثافة المجتمع وتقسيم العمل والاتصال بمجتمعات أخرى هي عوامل بارزة في التطور والتغير الاجتماعي، ويتبين لنا أنه يعتبر الواقع المادي والموضوعي ليس فقط الواقع الاقتصادي، تابعا للأفكار والتصورات أو بصفة عامة **للوعي الجمعي** المتمثل في وجود قيم مشتركة بين الأفراد.

يمثل موضوع **تقسيم العمل** أهم إنجاز قدمه "إيميل دوركايم" في علم الاجتماع، الذي كان موضوع أطروحته في الدكتوراه؛

وقد أوضح "دوركايم" تطور المجتمعات من **مجتمعات بدائية** إلى **مجتمعات معاصرة** حسب نوع **التضامن الاجتماعي** السائد بين أفرادها، فالتضامن السائد بين المجتمعات البدائية هو(**تضامن آلي**) يتميز **بالبساطة** والسذاجة أحيانا وضيق الاختلافات والفوارق بين الأفراد فهم متشابهون إلى درجة كبيرة ويتمسكون بنفس القيم ويتفقون على نفس الأشياء حتى المقدس منها، بعبارة أخرى هم متجانسون ولا يخضعون لتقسيم العمل، في حين التضامن الذي تعرفه المجتمعات المعاصرة هو (**تضامن عضوي**)، الذي يتميز بالتعقيد وله مميزات في الوظائف ويخضع لمعيار مبدأ تقسيم العمل، وتقدر فيه توزيع الوظائف على الجماعات والأفراد إلى تميزه **بزيادة التخصص**، وهذا النوع من التضامن يشكل عنصرا أساسيا في الحياة الاجتماعية ويسود عموما داخل الوسط الاجتماعي الذي يطغى عليه سلطة القانون، بمعنى أن حياة الناس تتجه إلى التنظيم الرسمي وتساير صلاحيات السلطات بين مختلف الأدوار الاجتماعية في مفهوم التنظيم وتدرجه.

ولعل صفة "العضوي" التي أطلقها على نوع التضامن في المجتمعات المعاصرة جاءت كتبرير وتوضيح المسألة البيولوجية، مثلها مثل أجزاء الكائن الحي، فأعضاء هذا الأخير متمايزة لكنها ضرورية ولا غنى عنها للجسم بالتساوي فلكل وظيفته، وعليه كان "دوركايم" الأب الروحي للاتجاه الوظيفي في علم الاجتماع.

03- أساسيات المنهج العلمي عند دوركايم:

تقوم الطريقة العلمية عند دوركايم على ركيزتين أساسيتين هما: الملاحظة والتفسير.

أ- **الملاحظة:** يرى "دوركايم" أنه يجب النظر للظواهر الاجتماعية على أنها أشياء في مواجهة الفكرة، معنى ذلك أن معرفتنا بالشيء إنما من الخارج من عالم الموضوع، في حين الفكرة تأتي من الداخل أي من عالم الذات، أي أن نسلك حيالها مسلكا عقليا خالصا **بإتباع الخطوات** التالية:

- التخلي عن الأفكار المسبقة التي نملكها حول الظاهرة وانطلاقا من كوننا لا نعرف شيئا عن جوهرها ونجهل تماما خصائصها.
- الانطلاق من الخواص الخارجية إلى الداخلية للظاهرة.
- الاعتماد على الإحصاء كتدبير يساعد على تخليص الظاهرة الاجتماعية من اختلاطها بغيرها، وبغية ملاحظتها في حالة نقائها وصفائها.

ولو طبقنا قواعد الملاحظة العلمية التي قدمها "دوركايم" لوجدنا الفئة الوحيدة من الظواهر الاجتماعية التي تلائمها هي فئة القوانين والتشريعات، فهي خارجة عن الفرد وموجودة ومستقلة ومصدر رئيس في الحياة الاجتماعية.

ب- **التفسير:** ينبغي حسب "دوركايم" تفسير ما هو اجتماعي بالاجتماعي، وليس بالنفسي أو البيولوجي، ويعني هذا تفسير الظواهر الاجتماعية في ضوء وظيفتها الاجتماعية وتبعا لذلك يلجأ "دوركايم" إلى حجتين منطقيتين تتكرران ويستخدمهما معا لتمهيد الطريق أمام التفسير الاجتماعي:

- **الحجة الأولى:** الحالات النفسية ليست سببا وإنما نتيجة للواقع الاجتماعي، ودليله أن اختلاف الميول النفسية وتغيرها باختلاف وتغير الشروط المجتمعية ومن مجتمع إلى آخر.
- **الحجة الثانية:** لا تفسر الظواهر الاجتماعية بالسلالة أو العرق أو الوراثة، والسبب أن أشكال التنظيم الاجتماعي الأكثر تنوعا وجدت في المجتمعات من السلالة نفسها .

وأخيرا يتحدد مسعاه العلمي في الكشف عن القوانين التي تحكم الظواهر الاجتماعية، ولك لهدف اجتماعي هو علاج المشكلات الاجتماعية، حتى نصل بالمجتمع إلى التضامن الاجتماعي المنشود وتقسيم العمل الوظيفي الفعال، وإلا فما الفائدة العملية لعلم الاجتماع عن لم يبلغ لك؟

04-الظاهرة الاجتماعية عند دوركايم:

أما **الموضوع الأساسي** لعلم الاجتماع فكان بالنسبة له "**الظاهرة الاجتماعية** "، واتخذ من المماثلة العضوية بين الظاهرة الاجتماعية والظاهرة الطبيعية أساسا للتحليل والتفسير، حيث عرف "دوركايم " الظاهرة الاجتماعية بأنها: أنّها ضرب من السلوك المختلفة سواء كانت ثابتة أم متغيرة والتي من شأنها أن تسبب القهر الخارجي على الأفراد، أو هي كل سلوك يعم في المجتمع بأكمله وتكون خصائص هذا السلوك مختلفة في حال تشكله بحالة فردية عنه في الحالة الجماعية. (إبراهيم، **2006، 96**)
وقد حدد لها مجموعة من **الخصائص المميزة** أهمها: (**عبد الجواد، 19**)

- **تلقائية:** بمعنى أن الفرد ليس بصانعها لأنها موجودة قبل أن يوجد الأفراد، فنحن نولد ونجد مجتمعا كاملا معدا من قبل أن يوجد الأفراد ولا نستطيع أن نغيره إذا أردنا وعلينا أن نخضع له.
- **جبرية وملزمة:** أي أنها تمتاز بقوة قاهرة هي السبب في أنها تستطيع أن تفرض نفسها على الأفراد، فليس الفرد حرا في إتباع النظام الاجتماعي أو الخروج عليه.
- **عامة :** يعني وجود الظاهرة في كل مكان فهي منتشرة في معظم المجتمع.
- **خارجية:** بمعنى أنها أشياء خارجية ومستقلة تستلزم دراستها دراسة موضوعية وملاحظتها منفصلة عن الحياة الفردية.
- **معقدة:** أي لا يمكن إرجاعها لسبب واحد بل لعوامل عدة (سياسية، اقتصادية، نفسية، دينية، جغرافية،...)، مما يجعل دراستها أصعب من الظاهرة الطبيعية.
- **متداخلة ومترابطة:** أي يفسر بعضها بعضا ويؤثر بعضها في البعض، فلا يمكن دراستها منفصلة أو منفردة، فالأسرة كظاهرة اجتماعية لا يمكن دراستها بمعزل عن الظواهر الاقتصادية أو السياسية...وهكذا.

أمثلة عن الظواهر الاجتماعية التي درسها إيميل دوركايم:

أ- ظاهرة الانتحار:

- **تعريف الانتحار:** يعرفه دوركايم على "أنه كل حالة وفاة ناتجة عن فعل إيجابي أو سلب، يقوم به شخص يعرف تماما نتيجة هذا الفعل"، والمقصود بالفعل الإيجابي هو إطلاق النار على النفس مثلا أو شرب السم، أما السلبي فيكون بالإصرار على البقاء في منزل يحترق أو الإضراب عن الطعام .(إبراهيم، **2006، 99**)
- **أنواع الانتحار:**

✓ **الانتحار الأنومي:** يظهر هذا النوع من الانتحار عندما يفشل المجتمع في السيطرة على سلوك وعلاقات أفراده ,وعندما تتفسخ الأخلاق والآداب والقيم وتضعف العادات والتقاليد وتعم

الفوضى والفساد في ربوع المجتمع وهنا يفقد الفرد آماله وطموحاته وتضعف أو تنعدم عنده الرغبة في التفاعل مع الآخرين والانسجام معهم، وعندما يشعر الفرد بعدم قدرته على وضع حد لهذه الحالة المتفسخة والشاذة وعجزه عن تغيير المجتمع نحو الأحسن فانه يصاب باليأس والقنوط وانعدام الآمال والأهداف، ومثل هذه الحالة تلحق به المرض النفسي والكآبه والاشمئزاز من الحياة.

- ✓ **الانتحار الإيثاري:** يعتبر انتحار التضحية في سبيل الآخرين مناقضا من حيث أسبابه ودوافعه لانتحار الوحدانية فهو ناتج عن شدة تماسك وانسجام الفرد مع جماعته وقوة علاقته الاجتماعية معها ذلك أن جماعته كما يعتقد لها أهميتها وفاعليتها في وجوده وكيانه فهو لا يستطيع العيش دون وجودها ويكون معتمد عليها ومتأثر بتعاليمها وفلسفتها وأساليبها السلوكية كما يكون مستعدا على التضحية بماله ونفسه من اجل بقائه واستمرارها إذا تعرضت للخطر والتهديد وعندما تتعرض الجماعة لخطر العدوان أو التفكك فانه يقوم بالدفاع عنها بكل ما يملك من قوة وباس ،وفي أحيان كثيرة ينتهج الصيغ الانتحارية لإنقاذها من مأزق التشتت والانهيار والفناء .وإذا فشل في إنقاذ الجماعة من الخطر فإنه يقدم على الانتحار علما منه بأنه لا يستطيع العيش بدونها ولا يريد مشاهدة وضعها البائس والمتشتت بعد عجزها في درء الأخطار والتحديات عنها، وما العمليات الانتحارية التي قام بها الضباط اليابانيون إبان الحرب العالمية الثانية إلا نموذج لذا النوع من الانتحار.(القريشي، 2012، 344)
- ✓ **الانتحار القدري**: وهو نوع يشير إلى حالة التنظيم المفرط والقيود المتشددة التي تنتج الانتحار ففي نظره أن الأفراد يقدموا على وضع حد لحياتهم بسبب شعورهم بضياع مستقبلهم بلا شفقة بعدما اصطدمت مشاعرهم بعنف المعاملة القاسية ، فضلا عن الأنظمة القهرية.
- ✓ **الانتحار الأناني**: يظهر هذا النوع من الانتحار نتيجة لانعزال الفرد عن المجتمع لسبب ما يتعلق بالفرد نفسه أو يتعلق بالمجتمع الذي ينتمي إليه الفرد ويتفاعل معه ،فهذا الفرد لا يستطيع تكوين علاقة طبيعية مع المجتمع لعدم تذوقه لقوانين وعادات المجتمع وسخطه على نظامه ووضعه العام ،والمجتمع من جانبه لا يعطي المجال للفرد للتفاعل معه والانسجام مع مؤسساته البنيوية نظرا لتناقض ميوله واتجاهاته ومصالحه وأهدافه وقيمه مع تلك التي يتمسك ويؤمن بها الفرد ، لذا يشعر الفرد بالبعد والعزلة عن المجتمع، وهنا يفقد آماله وطموحه ويضيع كل شي له علاقة بالمجتمع ويفشل في تذوق ثمرة عمله وجهوده,لذا تنعدم عنده معاني الحياة السامية ويفقد مثله وقيمه ومقاييسه بعد ذلك يصاب بمرض نفسي خطير قد يؤدي به إلى الانتحار .

- أعطى "دوركايم" **خلاصة لأسباب الانتحار بعد تحليله للظاهرة** ومنها:

- الزواج المبكر غالبا ما يؤدي إلى الانتحار خاصة بين صنف الرجال.
- يقل الميل إلى الانتحار إبتداءا من سن العشرين للمتزوجين من الجنسين عنه من غير

المتزوجين.

-تزداد نسبة الانتحار بين غير المتزوجين من الجنسين منها بين المتزوجين.

-تقل نسبة الانتحار بين النساء عنها بين الرجال.

- تقل نسبة الانتحار بين النساء غير المتزوجات عنها بين الرجال وذلك لأنه في نظره الرجل يستفيد من الزواج أكثر من المرأة.

- تقل نسبة الانتحار بين الأرامل عنها بين المتزوجات.

- تقل نسبة الانتحار بين المتزوجين الذين لديهم أطفال عنها بين المتزوجين الذين ليس لديهم أطفال.

- تقل نسبة الانتحار بين الأرامل الذين لديهم أطفال عنها بين من لا يوجد لديهم أطفال.

-تقل نسبة الانتحار بين الأرامل اللواتي لديهم أطفال عنها بين المتزوجات اللواتي ليس لديهن أطفال.

- تقل نسبة الانتحار كلما زاد حجم الأسرة.

- تقل نسبة الانتحار في فترات الاضطراب السياسي و الحروب.

ب- الظاهرة الدينية:

عرض "دوركايم" هذه الدراسة في كتابه (الصورة الأولية للحياة الدينية) سنة 1912 ، حيث حاول تطبيق تحليله للقوى الجمعية أو الجماعية في دراسته للدين في أكثر مظاهره الأولية، حيث يقرر منذ أنه سوف يدرس أكثر الديانات المعروفة لنا بدائية وبساطة، وهي تلك التي نجدها في مجتمع لا يتجاوز أي مجتمع آخر في بساطته، فقد وقع اختياره على إحدى القبائل الاسترالية التي تسمى (الأرونتا) لكي يجري عليها دراسته المركزة من خلال بعض المصادر الثانوية. (القريشي، 2012، 344)

فرق بين ما هو (**مقدس**) وما هو (**علماني**)، فالمقدس هو كافة ا أشياء التي يحددها الإنسان ويعزلها عن غيرها نظرا لطبيعتها الخاصة مثل الطقوس والمعتقدات التي تكتسب صفة دينية، أما العلماني فهو الجانب الاجتماعي الذي يضم الحياة العامة لهذه العشيرة بتجمعاتها والتي تمارس حياتها الخاصة لقضاء احتياجاتها.

وتوصل إلى أن الديانة "التوتمية " هي أكثر صور الدين بساطة، هذه الأخيرة تتمثل في حيوان أو نبات أو شيء طبيعي يرمز إلى قوة القبيلة من جهة وإلى مبدأ توتمي مقدس من جهة أخرى.(**www.pdffactory.com**)

ويحقق الدين وظيفة اجتماعية، حيث هناك اعتقاد داخلي أنه هناك قوة مقدسة تحمل مجموعة من الجزاءات تطبق على كل من يحاول انتهاك المقدسات وهنا يتحقق التفاعل والتضامن الاجتماعي.